

قبل ان يتعمد بالشهادة

أنهى صلاته وسلم. كانت رائحة قهوتها قد عبققت في المكان فملأته انتشاء. ارتشف اول رشفة من قهوته وقال فيما هو يهم بالجلوس: الله! . . . الله! . . . اغمض عينيه وسبح ربه على نعمه الكثيرة. جلس الى جانبها التصق بها اكثر مما في عاداته ان يفعل. مر بيده فوق خصلات الشعر السوداء اللامعة فوق جبينها وأزاحها الى الوراء. كم يحب هذا الجبين العالي المملوء بالكبرياء. . . مر يده فوق بطنها المنتفخ وتأمل عينيها الحالمتين وقال: تسميه نضال. مهما كان جنس المولود تسميه نضال.

- متى تعود سألت فيما هو يطبع قبلة فوق جبينها

- حسب التساهيل

حاذى الغرفة المجاورة ونادى دون ان يقرع الباب : ادعيلي يمًا

انطلقت مع ازيز الباب دعوات امه التي فتحت مسرعة تلف راسها بالمنديل الاسود: الله يرضى عليك يا حبيبي ويجعلك في كل خطوة سلامة. وحياتك بما لا تنسى ان تمر على الهلال تسال اذا كانوا جلبوا دوا الضغظ.

حيا "ابو رباح" المقرفص عند عتبة بابه. طريف هذا الختيار, يرفض ان يغير القمباز. كل هذه السنين في المدن ولا يزال يصير على القمباز وسيكارة اللف. إصولي عتيق.

ماذا يفهمون دعاة التمدن من الاصولية؟ هم يعتبرونها عيب, تهمة, جريمة. منذ مدة قصيرة كانوا يقولونها بفخر يعنون بها الطهر, النقاء, فم النبع قبل ان تلتهمه الايدي والارجل والعيون, لله كيف يسوقون الكلام حسب غايتهم, وما اغباننا نجرف في تسويقهم دون تفكير. اليوم يسوقون كلمة جديدة اسمها "شفافية". لم تعد تخلو جملة من هذه اللفظة "الشفافية". من استهدى على هذه اللفظة وكم سيطول عمرها قبل ان تمسي مثل غيرها عيبا او شتيمة؟! . مالي ولهم. لهم قاموسهم ولي قاموسي. لهم طرقتهم ولي طريقي. لهم ايمانهم ولي ايماني. لهم فلسطينهم ولي فلسطيني

كانت الشمس قد بدأت ترسل اشعتها خجولة شاحبة. أحس دفننا يسري ناعما في عروقه. ما أجمله من صباح لا يعكره إلا آثار دباباتهم وقصفهم الذي لا يزال يسد أزقة المخيم. تتسابق دجاجات عمته وضفة على نبش تربة عجفاء . زعمائنا اللاهثين وراء المفاوضات كدجاجات عمتي وضفة، تربتهم خلعت حتى من دودة صغيرة تتقاتل عليها عشرات المناقير. على كل غدا يبأسون ويعرفون ان الله حق

سيختلفون غدا على تسمية عمله: إستشهاد؟ فداء! انتحار! ارهاب! . . . كله لا يهم انا لا افعل ما افعل لاجل قولهم ومباركتهم إنه إيماني وحدي وإن كره الظالمون. بيتسم فيما هو يقرأ الشعارات التي شوهاها القصف من جملة ما شوه. . . حتما سيقومون له ماتما رمزيا. ليتهم لا يفعلون. لا لزوم لهذه المراسيم الوثنية. لا يريد لدمه ان يسيس. . . فكر بالمولود الذي سيجيء الى هذه الدنيا يتيما. وإن يكن ! ! . . . النبي صلى له عليه وسلم عاش يتيما حتى انه تغذى على حليب مرضعة. قد يهدمون هذا الخص المسمى بيتا. لن يزيد هدمه ولن ينقص على كل الهدم الذي مارسوه. . . المهم ان لا يتمكنوا من هدم النفوس . . .

تمنى لو كان او فر حظا. لو انه ولد في زمان غير هذا الزمان. . . استغفر ربه: "الهم لا اعتراض على مشيئتك". قرأ آية الكرسي. اشاع الدعاء طمانينة هادئة في نفسه ومشى الى قدره بفرح لا يستطيعه إلا من منحه ربه نعمة الشهادة

بقع فوق افكار نعمان

نعمان لا يحب أزيز الطائرات الراحدة. عندما كان صغيرا كان يهرع مختبئا بثياب أمه كلما مرت دراجة نارية مفرقة، وكان أول من يتكلم في زاوية آمنة عندما يداهم حيهم قصف مفاجئ

نعمان لا يحب ان يموت، ليس لأنه يحب الحياة فقط، بل لأن موته سيحزن أمه كثيرا. عندما خطف أبوه ولم يعد، ظلت لسنوات تبكي. تسربت بالسواد. وضعت منديلا أسود فوق رأسها وبدأت تهرم بسرعة، حتى أنها لم تعد تحبهم. لم تعد تذهب كما من قبل ولم تعد تصنع له الاطباق التي يحبها. صارت مثل خادمة ام بشير تطبخ وتضع الاكل على الطاولة دون تعليق، دون ان ترجوه او ترجو عامر ليزيد. ظلت لسنوات لا تأكل حبة حلو، وحرمت صنع الكاتو والكنافة في البيت. صحيح انه كان يشتري كنافه وكاتو من عند العريسي ولكن ما تصنعه أمه أطيب. اكثر من مرة خبا قالب الكاتوه عندما يزورهم احد على غفلة لكي لا تقوم امه بتقديمه للضيوف.

عزّة ايضا ستحزن. ولكن حزنها لن يكون بمثل حزن أمه. ستندم على كل المشاجرات التي كانت تفتعلها معه. ستندم لانها ظلمته يوم اشتكته لعمام وقالت نعمان يدخن. كان عامر قاسيا معه يومها. قطع عنه المصروف. بقي لأسابيع يأكل سندويشته ناشفة ولا شفة ببسي. عزّة تغيرت كثيرا بعد ان تخرجوا من بيتهم الريفي شرقي بيروت وسكنوا في برج الراجنة. صارت تصرخ كلما دخل عليها غرفتها "اطلع بره". صارت تقضي وقتها بقراءة مجلات تخفيها تحت الفراش عندما تدخل أمها الغرفة فجأة. يوم رمى لها المجلات عن الشرفة الى الشارع قالت له: "إنشاء تموت" (ستتذكر هذا وتبكي)

لا يستطيع ان يتصور مدى حزن رنده ولكنها حتما ستندم لأنها كانت دائما تتباهى عليه بتفوقها في الدراسة ولا تكف عن ترديد: "طالع حمار لا تنفع لأي شيء. . . روح كب حالك بالبحر". صحيح أنه كان يكرها لذلك ولكنه كان يتباهى بها كلما سأله معلم جديد عن قرابته برنده. كان يقول بالف المألن رنده اختي. ولكن رنده مغرورة دائما تهزئه وتقول انها تحجل ان يكون لها أخ كسلان مثله. ستندم على كل كلمة جارحة قالتها في حقه.

قد لا يحزن عامر كثيرا، موته سيخفف بعض الحمل عنه. عامر هذا عواطفه جامدة. . . في هذه السن وليس له حبيبة او خطيبة. لا يعرف إلا الواجب. يعمل مثل الآلة. يصرف على البيت منذ استشهد والده ولكنه يعيش في صومعته بعيدا عن همومهم الاخرى. لم يسأله مرة عن أحواله الغرامية ولا علمه، كما يفعل الاخوة الكبار عادة، كيف يتعامل مع حاجاته الجنسية، وهو لا يعرف عن أحلامه وطموحاته شيئا. لم يغضب يوم قال أنه تطوع مع الشباب وأنه ذاهب معهم الى حي السلم ولم يشد على يده مشجعا. وقف مثل "ابو الهول"
هل ستبوح إبتسام بما كان بينهما؟! . . . هل ستحضر جنازته؟! . هل ستجلس الى جانب أمه ورنده وعزّة تتقبل التعازي في موته؟! . . . لا يظن ذلك. إبتسام تخاف من اخيها علي. كثيرا ما كانت تقول له مازحة كلما جاء يضمها ويقبلها "علي فوق الشجرة"

سوف يصلون عليه في كنيسة مار بطرس وبولس في الحمرا. وسيقول أبو ماهر كلمات جميلة في تأبينه. عند كل وقفة له ستجيش أمه بالبكاء ولكنهم سيدفونونه في مقبرة الشهداء. أبو عمار قال كل الشهداء يدفنون في مقبرة الشهداء، إسلام ومسيحية. هو لم يأبه لانتقادات رجال الدين. قال لهم هؤلاء صاروا إسلام بالشهادة. هو يحب ابو عمار ولكنه يسكت عندما ينتقده ويشتمه كواد الجبهة الشعبية كي لا يبدو سانجا لا يفهم بالسياسة

سيلف النعش بعلم فلسطين وسيطلق رفاقه الرصاص تحية للشهيد البطل. ستكون الكنيسة مليئة برفاقه المسلمين الذين سيسخرون من هذه الكلمات التي تقال بلغة لا يعرفون ما هي. قد يتضايق بعضهم من رائحة البخور القوية ويترك الكنيسة بسبب تلك الرائحة. . . قد يسخر عماد ورسمي من هذه الشموع الصفراء الكبيرة المضاءة في عز النهار ويقول: مثل هذه الشموع تكفي مؤونة الاضاءة لمدة شهر.

عندما سيقومون بحمل النعش ستزداد الشبهات وسيرتفع النحيب : ستصرخ أمه: مع السلامة يا حبيبي يا نعمان, سلم على أبوك. وربما تغيب عن الوعي. قد تطلق أم جميل زغرودة مفاجئة كما تفعل دائما وقد يتبعها بعض الرفاق بانشودة "يا ام الشهيد زغردي كل الاولاد اولادكي . . . "

كم هو جميل ومحزن موت الشهيد! . كم هي جميلة كلمات التأبين! . كم هي جميلة اللوحة الرخامية البيضاء المكتوب عليها اسمه وتاريخ ميلاده وعبارة استشهد دفاعا عن بيروت المقاومة بتاريخ 1982

أحس انه على حافة البكاء، لا بسبب ما سيصير اليه بل بسبب هذا الشجن الجميل والحزين كالموسيقى.
تساءل:

لو أنهم علموا ان ما يجول في فكره من خواطر بين الحين والآخر هل كانوا سيظلون يعتبرونه شهيدا؟! . لو علموا انه في بعض الاحيان يندم على هذا التطوع، وعندما يشتد الخطر يتمنى ان تنتهي الحرب حتى وان لم تنتصر الثورة . لو علموا انه تظاهر بالمرض ليلة البارحة حتى لا يشارك بالهجوم على مثلث خلد الذي قام بالنيابة عنه رفيقه هاني واستشهد خلاله. لو علموا انه كان يحب ان يتفرج على صور النساء العاريات ويقرأ النكات الجنسية اكثر مما يحب قراءة كتب ابو ابراهيم. لو علموا انه كان يبخل عن شراء مجلة الهدف حتى يوفر ثمنها ويشترى مجلة بلاي بوي. . . سرّ نعمان لان الافكار ليست كالثياب فهي لا تظهر البقع القذرة التي تلطخها.

عندما جاء ابو مجاهد وبرفقته ثلاثة من رفاق نعمان بثياب مرقطة، لم تقم ام عامر متلهفة لترحب او تسأل عن نعمان بل قالت وعيناها مطرقتان الى الارض:

- لا ضرورة للكلام. . . لقد زارني ليلة البارحة وقال لي وداعا يا ام عامر. وصّاني ان لا أحزن ولا ألبس السواد ولا أتوقف عن خبز الكنافة. قال، إن حزني سيحزنه كثيرا ويجعل موته حقيقيا

كاركاتير

خطوات وتدفق عتبة العقد الخامس تصابيحها مختلف كما كانت في الماضي مراهقتها. يثير فضولها أي جديد في عالم اليوم الزاخر بالمستجدات التكنولوجية. تريد أن تثبت لنفسها أولاً , أن لها عقلاً شاباً قادراً على مساهمة الركب الحضاري. هدفها اليوم هذا الجهاز العصبي الرابض في كل ركن أينما اتجهت (الكمبيوتر), من أكبر دائرة في الدولة الى اصغر متجر , حتى صالون الحلاقة - بلا صغرة - يعمل على الكمبيوتر. . . . وقررت ان تغزوه .

تستعين باصغر ابنائها , تتحمل عليائته على مضض. يضايقها هذا الوضع المقلوب. . . . الإبن معلماً ! . . . تتعرف منه على المبادئ الأولية التي يركز العمل عليها . تستخلص , بعد لأي , ان الكمبيوتر أرشيف كبير : برامج وملفات وحقائب وما إلى ذلك.

قررت أن تبدأ بما يسمونه (مصنع الكلام) word processing خطوة ... اثنتان . . . ثلاث . . . واصبحت جاهزة للبدء بالتنفيذ.

شكرت الصبي , واعتدلت في جلستها . غمرها اعتزاز . . . كم هي سعيدة ... وكان اول عمل بدأته هو كتابة رسالة ألى صديقها رانية في بيروت . ستشرح لها ما في صدرها من مشاعر وهي تغزو هذه الحداثة , وأي انتشاء يغمرها إذ استطاعت ان تسامر الركب الحضاري . وتمادت في أحلامها : غدا تدخل سوق الإنترنت . هذه السوق التي تضع العالم بين يديك , تعرفك على أحدث الإكتشافات من مشرق الأرض إلى مغربها , تقدم لك الحضارة العالمية من طريقها الى تليدها بكبسة زر . غدا سيتسنى لها قراءة ما يحلو لها من كتب أو جرائد أو أي معلومات ترغب بها دون عناء البحث في المكتبات وإرهاق النفس والجيب... لجمت خيالها وبدأت :

صديقتي العزيزة رانية

لم يطل بها المقام , فما إن وصلت إلى منتصف السطر الثالث من رسالتها حتى بقدرة قادر غاب من امامها ما اجهدت النفس في تحريره على الشاشة . كيف حصل ذلك؟! . . . ما الذنب الذي اقترفته حتى اغضبت الحروف فتواترت !! . . لا تدري !! . . ما العمل؟! ! ما العمل!?! . . .

اخذت تضرب على غير ما هدى . . . تجرب ازرارا وأزرار . . . وراحت تتوالى امامها صور واشكال محيرة . . . تجرب بعضها فيقودها الى تعقيدات اشد وأدهى , تضع في زحمتها , لا تستطيع التقرير في شأنها . وتغرق في لجج من الحيرة والارتباك

يرن جرس الهاتف , فتجاهله . . . يصر على الرنين وتصر على التجاهل , يستفيق الزوج من قيلولته غاضبا أين انتم اما من احد يخرس هذا الش. . .

. . .
- عايدته على الخط

. . . .
وتسمعها يتكلمان , وتطول المكالمة . . . وتصلها من حين الى آخر عبارات متهمكة فلا تبالي . . . وترن ضحكات يتردد خلالها اسمها . . . الا ان ما هي فيه من هم اقوى من اي فضول نسائي حتى ولو كانت هي نفسها موضوعه

تقترب منها ابنتها الكبرى وتسال أن كانت بحاجة لأي مساعدة , إلا ان كبرياءها يمنعها عن قول نعم صريحة فتتصنع اللامبالاة , إلا ان الابنة من ناحيتها قد رأتها فرصة مناسبة لإظهار براعتها والقيام بدور المعلم والمرشد على من اتخمته طوال عمرها في لعب هذا الدور

بلحظة تعيد الابنة الوضع إلى سابقه وتشرح لها معنى بعض التعبير . وتعود هي الى متابعة عملها.

لم يطل الامر إلا دقائق حتى برزت لها مشكلة أخرى. اختفى نصف الصفحة عن الشاشة . وبعد جهد ومحاولات عشوائية حيناً وهدافة حيناً آخر عاد الوضع الى ما كان عليه. . . تنفست الصعداء . لقد كفاها الله ذلّ السؤال

همهمات وضحكات خافته تسري في الغرفة المجاورة . . . لا بدّ أنهم "يقطعون فروتها" هؤلاء العفاريث . ولكن لا بأس سنثبت لهم أنها لا تقل عن أحدهم براعة في هذه التكنولوجيا العصرية . ساعات معدودة وربما دقائق وتفهر هذه الآلة اللعينة , تخطئ ; تصصح الخطأ ; ثم تقع في نفس الخطأ , وتعيد التصحيح ; مرة . . . وإثنتين . . . وثلاث . . . ترقص الكلمات امام عينيها . . . ترتعش يداها . . . يغشى بصرها ضباب يعميها عن تمييز موقع الحروف , تنهض عن كرسيها , تقصد الشرفة عل الهواء المحمل بانفاس الياسمين المجاور يساعدها على استعادة ما ارهقته المحاولة من أعصابها . . . حاولت ان تشغل بالها بمراقبة حركة المارين حيناً , وبالإنصات إلى أصوات الطيور المنبعثة من المنتزه المجاور حيناً اخر , ولكنها تفشل في إبعاد الموضوع عن ذهنها . . . تهرع إلى الهاتف تحاول ان تشغل نفسها بالحديث الى أيّ كان . . . تلقى بالسماعة قبل الوصول إلى آخر رقم هي بصدده . . . تعبر من غرفة الى أخرى بحطوات قلقة متوترة . . . وهم من وراء الباب يسترقون النظر ويطلقون تلك الضحكات الخافته . . .

يتدخل الزوج مداعباً , محاولاً التخفيف عنها , لا تطيق مداعبته , يقترح شيئاً ما ولكنها لا تسمع اقتراحه , يصر على التدخل , يجلسان معا قبالة هذه الآلة اللغز ويصلان الى تسوية . واذ يتركها منصرفاً الى اموره بعد ان اطمأن على ان كل شيء على ما يرام , تعود لإتمام ما بدأت به . لقد اقفلت الباب على نفسها هذه المرة , لا تريد لإحد ان يشمت لفشلها . اسطر قليلة وتبرز مشكلة أخرى مشكلة أدهى من كل سابقتها . . . لقد تغيرت الحروف تماماً . . . تضرب حرفاً فيرتسم على الشاشة شكلاً الله اعلم ما هو , وإلى أي لغة من لغات الارض ينتمي . . . واذ أعيابها الأمر نادى , وامرها الله , طالبة النجدة . كانوا قد نسوا امرها وانغمسوا حتى الاذان في مشاهدة أحد أفلام رحلات الفضاء الخيالية . . . لم يلب احد النداء . . . عز عليها تكرار النداء , فالإستجداء ليس من شيمها , ضغطت زر التشغيل بحركة عصبية , ثم تناولت قلمها الأزرق دغدغته بحنان , وبدأت كتابة رسالتها إلى رانية , ولكن بأسلوب وموضوع مختلفين .

عامر يكتشف مذاقا أطيب من قوس قزح

في معسكر الشباب الصيفي اكتشف في نفسه ميلا خجولا تجاهها كم كانت تبدو عفوية وواضحة في عواطفها وانفعالاتها وحتى في بساطة ملابسها كل ما فيها طبيعي لا يوارب تجلن عما ترغب به دون اعتبار لما سيكون من رد فعله او فعل غيره علمته الا يخجل من البوح حتى بأفقه نقيصاته واعلنت بكل صراحة استلطاقها له امرأة ناضجة ولو انها في مثل سنه تقريبا لأول مرة في حياته يعري نفسه امام اي مخلوق كان لا يشعر بالخجل عندما تصح بعض لغته المضطربة ولا توارب وهي تسأله إذا كان قد فهم كل ما جاء في محاضرة البروفسور فلاديمير ذي اللهجة القوقازية

بانتهاء المخيم كان عامر واولغا قد عمدا حبيبين لا يستغني احدهما عن الاخر اصبحا يقضيان معظم اوقاتها معا في قاعة المحاضرات في المكتبة في سهرات الاصدقاء حكّت له عن ابياها الصامت الفيلسوف الذي يرى ان حقد الغرب على السوفييت ليس فقط بسبب نظامه السياسي كما يدعون بل هو حقد قديم حقد الغرب على الشرق بكل ما يمثله الشرق والغرب من اختلاف في الرؤى والسياسات والطموحات الاستعمارية ككلمته عن أمها التي قاربت العقد الخامس من عمرها ولا يزال لها حماسا متوهجا لهذه الثورة وكأنها لا تزال في الخامسة عشرة حدثها بدوره عن انقصامه السياسي وعن خيالاته التي جعلت منه عبثيا لا يكاد يؤمن بعقيدة

لا لم تكن اولغا وراء لذة عابرة او رفيقة منفعلة بل كانت النور الذي كشف له ظلمات جهل فقهي دفع جسدها تعلم ان فعل الحب ليس غزوة ولا اقتناصا ولا فعل دنس بل رقصة ملانكية تتحني لها كل الطقوس الارضية بل إنها كانت النافذة التي اطل من خلالها على كل قيم وأصيل مجعها تعرف على فوكنر وشتوبنيك وماركيز ولوركا ونيرودا والذي علمته قصائده كيف يكبر حب عفوي بين رجل وامرأة ليشمل حب الوطن والحرية والانسانية جمعاء بل كانت طبيبه النفسي الذي شفاه من عقدة قدسية والده

- أبوك يا عامر كان مغامرا كان مرافقا سياسيا حتى وهو في الخمسين
وإذ تغضبه صراحتها إلا انها تفتح عينيه على أمور كثيرة وتشفيه من دونيته إزاءه ~
اولغا يا عامر علمتك تاريخ بلادك
- لا يا عامر لم تبدأ الخليفة بقصة آدم وحواء بدأت قبلها بكثير بدأت منذ كلكامش والوصايا العشر لم يكتبها موسى ~

استضافته في غرفتها كانت غرفة دافئة انيقة على غير ما تكلف بيئات زهرية تغطي النوافذ مدفأة في ركن ومكتبة في ركن آخر فوق منضدة الى جانب السرير ضوء قاعدته من البرونز لتمثال افروديت بيانو قديمة مكونة الى جانب السرير من الطرف الاخر سبجادة من نوع البسط الشرقية قالت إنها عمل يدوي لنساء شيشان

وقف صامتا في وسط الغرفة دعت الى الجلوس وغابت لدقائق لتعود حاملة كأسين فارغين وزجاجة نبيذ جلست قبالة يفصل بينهما طاولة منخفضة كذلك التي تسميها أمه طريزة أحس ان الكلام يجري ثقلا على لسانه جاول ان يبدو طبيعيا فتلهى بمراقبتها وهي تملأ كأس النبيذ وترحف على ركبتها باتجاهه تأمل شعرها الفخور العطر واذ ناولته الكاس رافعة عينين دعجاوين نحوه قرأ في بريقهما شيئا دموع فرح وارتياح لمعت في عينيه وانفجرت شفاته ولكنهما لم تنما عن كلام مررت اصابعها بين خصلات شعره وسمته انكيدو الصغير لم تنحن شفاته ليقبلها كان يريد منها ان تضمه بقوة بذراعها بيداعيه بيضاء بيضاء بين ذراعها احس أنه قوي واثق من نفسه وغير خائف التفت شفاته شفتيها قرأ في عينها دعوة الى وليمة حب أمر كبير بالنسبة له ولكنه اغمض عينيه مستسلما لنغمة علوية استسلم لها جسدا وعقلا وروحا لا يعي مما حوله إلا إطباق شفتيها فوق شفتيه إطبقتا على عقله بمثل القوة التي اطبقتا على فمه أمثلا لذة أكثر انتشاء من الخطيئة وأطيب مذاقا من الوان قوس قزح

